

الرأفة والرحمة في دعوة الأنبياء



«المتأمل في دعوة الأنبياء الناس إلى التوحيد يرى أن البُعد الحقيقي لهذه الدعوة هو البُعد التربوي والتعليمي والتوجيهي ومحاولة بيان فساد الآراء أو القناعات التي يعتقدونها وإرشادهم برفق ولين إلى صلاحهم وسعادتهم بدون إساءةٍ أو أذىٍ أو إهانةٍ أو أي شكلٍ من أشكال عدم احترام إنسانيتهم بل كان دأب الأنبياء تزكية نفوس الناس وتصفية قلوبهم وأرواحهم وإصلاح سرائرهم وتنقية معتقداتهم؛ لأنَّ الإنسان إذا صُلِّحَ باطنه صُلِّحَ ظاهره وسلوكه، وإذا سلِّمَت عقائده من الخطأ والضلالة سلِّمَ الناس منه.

العنف منهج حكّام الجور:

يبيِّن القرآن الكريم منهج العنف عند فرعون سواء في مواجهته للنبيِّ موسى (ع) حيث قال تعالى: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَاتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِذَا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) (الأعراف/ 127). أو منهجته في التعامل مع الناس قبل دعوة موسى (ع)، قال تعالى: (وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءًا سَاءَ الْوَعْدِ ابْ يَذَّبِحُونَ أَبْنَاءَكَ كُلًّا وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ كُلًّا وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) (البقرة/ 49).

قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (القصص/ 38).

وسرعان ما يُسارع الظالم إلى القتل مستخدماً العنف بأبشع صورته، قال تعالى: (وَاتْلُ

عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ. إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْتَقَبْ مِنَ الْآخَرِ. قَالَ لَأُقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (المائدة / 27).

وهذا ما فعله قوم لوط مع نبيهم حيث عمدوا إلى نبيهم وجماعته وإخراجهم من القرية، قال تعالى: (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنْ نَزَّاهُمْ أُنَاسٌ يَتَّبِعُهُ رُؤُنَ) (الأعراف/ 82).

وَأَمَّا مَعَ نَبِيِّ إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ يَدْعُوهُ بِالْحِمْلِ حَتَّىٰ يَمُوتَ فِي وَسْطِ السَّجَدِ فَأَنذَرَهُ رَبُّكَ وَلَوْلَا فَتْنَتُكَ فَفَافِكُم بِالْحَمْلِ وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ ﴿٩١﴾

الرفق واللين منهج الأديان:

قال تعالى: (لَتُؤْنِسُنَّ بِبَاطِنَاتِ آلِيكَ لِتَقُولُوا لَهَا لَا تَخَافُ الْعَذَابَ أَلَيْسَ مِنَّا بِبِئْسَ أَتَاكِ بِمَا تُؤْمِنُ بِهِ إِنْ كُنَّا بِمَا تَعْمَلُونَ فَاعِلِينَ) (المائدة/ 28)، وما أروعها من مواجهة بين اثنين أحدهما يخاف □ والآخر لا يخافه، فالتهديد بالقتل يواجهه بالنهر والدعوة إلى مخافة □ وعدم الوقوع في المعصية.

وهذا نبيُّ لوط الذي كان قومه يرتكبون أعظم الفاحشة، ومع ذلك لم يعاملهم بالعنف والقسوة، ولم يسلب في وجههم سيف الدين، بل راح يعطهم ويقدم لهم دليلاً ليس دينياً، وإنما أمرٌ عقلي مفاده أن هذا الفعل لم يسبقكم إليه أحد من قبل، فلو كان فيه جهة حسنة لفعله من سبقكم من الأمم، قال تعالى: (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) (الأعراف/ 80).

قَالَ تَعَالَى: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُفُودَهُ إِنْ لَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُفُودَهُ إِنْ لَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (آل عمران/ 75).

ونقرأ في دعوة نوح (ع) الحكمة والأسلوب الهادئ فهو يدعو قومه إنطلاقاً من خوفه عليهم وعلى آخرتهم، فهو المبلِّغ لهم والناصح الأمين كما يعبر كتاب الله وليس الحاكم المسلط عليهم، قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مِمَّا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) * قَالَ الْمَلَأَمِنْ قَوْمِهِ إِنِّي لَأَنْذِرُكُم فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنْ بِي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُوِّدْتُ لَكُم بِالْغُرُوبِ وَأَنَا نَصِيحٌ لَّكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (الأعراف/ 62-59).

وهذه دعوة بقية الأنبياء من صالح (ع) إلى هود (ع) إلى إبراهيم (ع) إلى غيرهم من أنبياء □ الذين ذكرهم القرآن الكريم ولا ترى في دعوتهم إلاّ الوعظ والتذكير والدعوة إلى التأمّل ومراجعة الذات وبيان المعارف الإلهية والنعم التي أنعمها □ على بني البشر وغيرها من الأساليب التي لا تنطوي إلاّ على المحبّة والرفق والخوف على الآخرين والنصيحة بدون عنف أو قسوة، قال تعالى: (وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمُ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَاتٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَمَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ * وَإِذْ كُورُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِّنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (الأعراف/ 73-74).

قَالَ تَعَالَى: (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَاتٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ

وَالْمُحِيزَانِ وَلَا تَدْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا (الأعراف/ 85).

وفي حوار نبي ﷺ إبراهيم مع أبيه ترى عظمة الرحمة والقلب الرؤوف والدعوة اللينة، قال تعالى: (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ تَتَّخِذَنِي إِلهًا تَدْعُنِي لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَرَلَ لَهُمْ وَمَا يَعْزُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَيُّنَا لَهُ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) (مريم/ 42-49).

وَأَمَّا في مواجهة موسى (ع) لفرعون، ورغم التسلط والاستكبار والعتو الذي كان يمارسه فرعون ضد شعبه نرى أن ﷺ تعالى يأمر نبيه بالتعامل معه بالحسنى، قال تعالى: (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِدِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَئِيْلًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (طه/ 42-44).

وفي الخطاب الإلهي لبني إسرائيل نقراً قوله تعالى: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْزَاهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ) (المائدة/ 32).